نظرة اولى واذا بالارض الرحيبة تتمطى امامك ، مبرزة كل خطوطها المتناسقة ، المتلة المعقرة بخصب ريان ، بنور اسطع ، وبريح خفيفة كانت قد هبت لينا في هذه الاثنـــاء هبوب حسن ومتعة الى حد الاحساس بالتذوق واستثارة الشهوة · فاضفي علـى الكـــل حينئذ ابعاد جديدة ، أفاق فتحت واخرى اغلقت ، وبدا وكأن شيئا ما كان قد لفـــه النسيان تقريبا ، مع انه في الظاهر صلب ويمكن الاتكاء عليه ـ حتى اللحظة التاليـــة التي يتجسد فيها وجوده ـ واذا بمربعات الحقول ، المحروثة والمورقة ، والبساتين الظليلة ، والوشائج الشجرية التي تقطع السهل قوالب مسترخية وممتدة ، والتلال الملونة التـــي تخفي وتكشف أفاقا لازوردية بعيدة ، قد خيم عليها كلها اسى اليتم ولفها الحداد · حقول لن تحصد بعد وكروم لن تروى وسبل تقفر · كما الضياع كانت كلها كما العبث · كتشابك العليق والاشواك فوق كل شيء ، وكصفرة اليباب ونهيق الخواء · واذا بتلك العيـــون المتهمة تحدق من قلب الحقول بك ، انه صمت النظرة المتهمة ، تمامـــا كتلك التـــي للحيوانات المهانة ، تحدق بك وتصحبك ولا مفر ·

ومن بعيد رأينا بعد ذلك ، فوق احدى التلال التي تشقها الطريق الترابية الكبيرة ، عدة شاحنات تتقدم منا ببطء ، تزحف كخنافس عمياء ، وتصارع حفر الطريق ولا صوت يسمع لها بعد · ويبدو ان ما كنت قد فكرت به ارتسم على وجهي دون ان ادري ، اذ ان عامل اللاسلكي التفت الي في نفس الوقت الذي كان يتصل فيه ، قائلا :

ـ « انك سيء المزاج اليوم ، ما الخبر ؟ » ·

ـ « لست سيء المزاج اليوم ، وليس من خبر » ، اجبته بنغمة لا تذكر في الواقع بنغمة ازواج خراف تجتر عند الغروب ، وان كنت لا تكترث منها هي تصرخ ـ هل تود الضرب ، تعال فاليك الضربات لك ! بالحماسة نفسها التي يهين شخص ما رفيقه بسبب كراهيتـه لوجهه الذي وشى بقلبه ·

انحدرنا من فوق التل ، على شفا هاوية (كانت قد تملقت هواجسي) الى أحد الكروم ، وبينما كنا نغوص في الاثلام الطينية الموحلـــة ، مندفعين الى الامام والى الخلـــف نشق طريقنا ، اصيب يهودا ، الذي نزل من الجيب يدفعه ، بكتلة طينية كثيفة ، فعاد الينـــا ملطخا كله وراشحا ومرشوشا ، وهو يشتم السائق والاعيبه التي لم تعـــد الاعيب ، غاضبا من ضحكنا وسخريتنا ومتوعدا بانه سوف يرينا ما الذي سيفعله بنا ، ولم يهدأ غضبه حتى عندما خرجنا وسرنا اخيرا في الطريق الترابية ، بل ولا عندما رحنا نعزيه بأن كل شيء سرعان ما سيزول مجرد ان نجلس ولن يبقى اي اثر ، اذ ان الوحل ليس بوسخ وانما هو تراب رطب ليس الا ·

تجولنا من بعد بالمسارب اللاهثة ، تسكعنا بين الوشائج المكتظة كقطيع مذعور ، قطعنا ممرات حقول شعرية ـ اسفنجية مفتوحة ، كانت الغلال تنبت على جوانبها كما في كـل عام ، تمشطها الريح امواج ظلال واطئة ، متدفقة سائرة باستمرار كعادتها · اما انـا فقد تخيلت ان ثمة كف ليد تخط عليها عنوة « لن تحصد » ، ومرت على الحقل كلـــه وما جاوره بسرعة ، تتخطى البور والمحروث ، واختفت في التلال واجمة · تقصينا كل مشروع زراعة في القرية وحقولها ، فادركنا اختيارهم لاماكن الكروم ، وفهمنا دوافعهـم للحواكير ، وبساتين الخضار ، كما واتضح لنا المنطق في حقول الفلاحة والكراب ، البور منها والمحروث ، لقد كان كل شيء واضحا جدا (مع انه كان من الممكن التخطيط لما هو افضل في رأينا ، وقد شرعنا في ذلك دونما قصد منا ، كل يخطط لنفسه) ـ ولا ينقصها